

مبارك وساط

فراشة من هيدروجين

(شعر)

طبعة 2020

مبارك وساط

فراشة من هيدروجين

(شعر)

صيغة مُراجعة ومُنقَّحة

طبعة ثانية، إلكترونية - 2020 -

(بعد طبعة أولى، ورقية، دار النهضة العربية، بيروت، 2008)

إهداء:

إلى خديجة

كوكبٌ مُعزِّد...

كوكبٌ مُعزِّد

فوق رأسي

ينزفُ مطراً

قاتماً، يملأُ جراري

بألم الأعشاب بقلق

الطَّير

تبقي يداي سعيدتين

بعد أن يهمسَ لهما النَّبيذ

بنشيد طفولته

لفائف سحرية (1)

نحن وحيدان في هذا المقهى

ولا نأمة تصلُ آذاننا، عدا

هسيسِ عظامِ فجر

يشيخ سعيداً

نُصت، نُدخّن لفايف

سحرية، يخفّ وزننا

نرتفع، مُبدّين في

الهواء، فطراً

وُندف ثلج...

الأرضُ نفسها

داخَتْ، فما عادتْ تجتذبنا

ويبدو أنّها كفتْ

عن الدّوران!

غربانٌ تحسبُ أنّها كواكب

بدأتْ تدور حولها

لفائف سحرية (2)

نُغَيِّ بِالسَّنَةِ الَّذِينَ رَكُضُوا

بِعُجْرٍ مَا وُلِدُوا

فِيَمَا ثَلَاثُ غِيَمَاتٍ

تُحْتَضِرُ حَوْلَ رَأْسِينَا

الْأُمَّهَاتُ فِي هَذَا الْمَقْهَى

أَقْلُ مِنْ أَسْمَائِهِنَّ

دَخْنَا وَدَخْنَا

فَمَضَتْ عِظَامُنَا

لِتَوَازَرَ أَخَانَا الْمَطَرُ

أَخَانَا السَّاقِطُ لَكُنَّا

نُبَجِّلُهُ

مِنَ الدَّخَانِ صُغْنَا أَطْفَالًا

دَلَفُوا إِلَىٰ بَطْنِ أُمِّ

وَهَنَّاكَ تَلَأُلُوًّا

لفائف سحرية (3)

من حولنا قلوبٌ صغيرة تُشقيشِق

وصناديقُ يُقالُ فيها الحديد فيه

بأسٍ شديد

لكننا ندخنُ وجداولُ النسيم

بخنوّ تلامس أكتافنا

نعلمُ أنّ جسدنا قد يضيعان

في هذه العاصفة

من التصفيق

الآبار محظورةٌ في هذا المكان

إنّهُ المقهى الذي وأدوا

تحت آلام القمر

يَوْمها، تركنا رأسينا في غابة

لِتستعملها العنادل

المضروبةُ الأعناق

ترسو المُرَبَّعات

رُعْمَ أَنِي مُخْتَرَع

بارومتر الآلام

فقد سئمتُ المكوث في هذه الجزيرة

كلّما انزاحتُ نحو السّاحل

أقول: إنّه النّسيم الهائم

كلّما بدأنا نتأقّل الشّفق، كلُّ

في قعر كأسه

إلا وترسو قُرب رؤوسنا المُرَبَّعات

التي تأسر بين أضلاعها العَصافير

ويوم أُعيدت إلينا أنفاسُ الغابة

بدأتُ أرقامنا

تتبعنا!

ثمّ سقط وجهي الحجري

على وجهي

وها إني أزمعتُ الرحيل

بعيداً، بعيداً

حتى مدينة المعارك

التي تنزلق على جدرانها

الكدمات

حتى ضفة النهر الذي يُدندن

كلما ابتسم فيه غريق

حَتَّى الصَّخْرَاءِ

أَفْكَرَ: لِمَ كُلُّ هَذِي الدَّمُوعِ

الَّتِي تَتَشَكَّلُ خَفِيَّةً

تَحْتَ أَظْفَارِنَا

وَلِمَ تَتَوَجَّسُ الْأَشْجَارُ

مِنْ شُعُوبِ الْعَصَافِيرِ

أَفْكَرَ: يَجِبُ أَنْ نَسْتَمِرَّ فِي السَّيْرِ

حَتَّى الصَّخْرَاءِ

الَّتِي تُنْبِتُ فِيهَا الْمَسَامِيرَ

أَحْيَاناً، يَبْدُو لِي

أَنَّهُ لَا مَبْرَرَ لَوْجُودِي

سِوَى أَنْي زَاوِيَةٍ

فِي مُثَلَّثِ رِعْشَاتِ

بَرْقٌ فِي غَابَةِ

شَرْرٌ فِي عَيُونِ الصَّيْفِ

في ربيع العمر

رأفةً، لم نُوقِظ الدّموع
المتمدّدة جنب رأسينا
وكلّما عمّ الأرق
أعاليّ الجبال
زوّدنا الجداولَ المُنْهَكة
بنغمات ومُسكّنات
كُنّا بعدُ في ربيع العُمر
فما إنْ ضربنا خياماً
لقبيلة الرّضع التائهين
حتّى دفعتْ بنا العصافير توّاً
إلى مشارف السّتين
واحدٌ منها امتزج بهمسك
ثمّ طار بعيوننا فلم نعدْ

نُدرك منه

إلا الرّفيف!

لكنّا، بكلّ تأكيد

سنسترجع هاتيك العيون

حين تسقط مع الثّلوج

في صباح شتائي

خيرٍ

من ألف شهر

أصنعُ سهاماً

من شَغري طارت فراشات

يمكنها أن تلسع وتُدمي

ومتى أشأُ، تزدادُ

ضراوةً

لم أكنُ قطّ مستكيناً

والآن أصنعُ سهاماً

من قَطراتِ نَبِيذِ

ليت لي

« ليت لي قلباً بقلبي... »،

حقاً يا أبا نواس

قلْبُ أوَّل يُمكنه أنْ يُحَلِّقَ

أخاً للطَّيور، وأنْ

يتألَّم، يُهَضِر ويَتبدَّد

وآخِرُ يسهرُ عليّ

يُفرِّقُ عني جيوش الأرق

ولا يترُكُني أُمح ابتساماتي

المسكوكة من بُقع الضوء

ولا خُطواتي

لهذي الهاوية التي تتبرِّج

أمام قدميّ

لا يترُكُني أنثُر لحظاتِ تمرّدي

على نوم الأعشاب

حيرة

لَمْ أَنْصَبْ فُحًّا لَطَائِرَ
نِمْتُ قَلِيلًا جُنْبَ شَجَرَةٍ
وَأَنْغَرَسَ حُلْمُ الطَّائِرِ
حَتَّى أَسَافَلَ جُذُورِهَا
أَخْلَامِي أَنَا مُشْتَتَةٌ
فِي الْآبَارِ
وَتَقَّةَ عَيْنٍ تَجُوسُ
دَائِرَةَ الصَّفْرِ نَفْسَهُ
الَّذِي رَسَمْتُهُ أَنْفَاسِي
أَمْضِي فِي سَبِيلِي الْوَعْرِ
وَإِذَا مَا تَعَثَّرْتُ وَسَقَطْتُ
يَبْعَثُنِي الضَّحْكَ وَاقْفَاءً حَتَّى الْغَيْمَةِ
الَّتِي كَانَتْ أُمِّي قَدْ سَلَّمَتْهَا
إِلَى سَمَاءِ الْإِيْتَامِ

أفضي في طريقي الوعر
لا أقلق إن كنت قدماي المارقتان
تنبشان المثلاث تنفشان ريشها
ولا آبه حتى بصورتي التي
بدأت تُثقبُ المرأة
فما الذي يُمكن أن أفعله
بكلّ تلك الحبال التي ستتدلى
من هاتيك الثقوب
- أنا الذي رأيتُ يوماً
جدولاً
يتسلل
من فتق في ستارة-
وقلت: جاء ليتحصن
وماذا يُمكن أن يرى طائر
في حلم

ما الذي تستطيعه الشجرة

بعد أن تمّ تأجيلُ المطر

وأين طريقي، الآن

وقد بدأ الضوء يتخفّى

في الذهب؟

ذِكْرِي

كان عليّ أن أكون حاضراً

أثناء الاستقبال

أن أحتمل كلّ تلك القسوة

أنا الذي لم أقل يوماً لجدول:

أصفتُ

أنا الذي كنتُ أشتري التّوم

بنقودٍ مسكوكة من أعصاب الجبين

ولا أرى في الخُلم سوى

شجرةٍ من ماء

فيها يغرقُ العُصفور

وتنطفئُ جمرَةُ الرّيح

قم لتكون حاضراً للاستقبال

قال أبي

ذَٰلِكَ أَنَّ أَحَدَ أَسْلَافِنَا

قَدْ أَبْحَرَ

مِنْ مِينَاءِ الْمَوْتَى

بِحَنِينٍ

أحياناً، أستدرجُ كوايبس

إلى غرفة نومي

صمتي جَبَلٌ

مكسوّ بالجليد

فما عليّ إلا أن أُمسك

عن الكلام

لأترلج وأنتشي

لكن أمتع من هذا

بعض الكوايبس

التي تندثر فيها سُلالات

وتتبخر جُزر مغناج

وتتذكر الصّحراء البحر

بحنين

البئر

(كما في حلم!)

كان بُخارٌ ونصالٌ النّغم تتصاعد من البئر التي يُنكران وُجودَها في عُرفة
الفُنْدُقِ هاته وأنا أوْكُذُه... عبثاً يَسْعَيان- جاري وليام الأرمني
والخادمة- إلى إقناعي!

الخادمة بِكاميراها التي لم تعدْ تلتقطُ صُوراً إلا لطائر يقضي الليل في
شَعرِها تُقدِّمُ لي كأساً، أما وليام فيتمشّي في الرّذْهة... رَغْمَ شَعرِهِ
الكثيف فإنّه يَفْشي كأضلع، وهذا من غريب التّصنُّع! كما أنّهُ سَيَفْضي إلى
الدّغل ويجمعُ أرمنيّات من الأعشاش ليعيش فيها حين لا نكون نراه...
تُحدّثني الخادمة عن رَجُلٍ اختلَلَ بَيْتَهُ إلى مُكعَّبٍ صَغير، فيما تُصنِّعُ شُموعاً
من دموع، ومن النّافذة، يَدْخُلُ الصّوء مكسوراً ومُرَمَّماً.

ثمّ ها وليام، تتوالى على وَجْهه طَرَقاتُ الملح، وهو يتكلّم!

عبثاً يُحاولان زَعْرَعَةَ يقيني! ...

يُحاولان تشكيكي، لكنني أبقى

واثقاً كخُطوة تحت المطر...

فليثُقْصْ عليّ بالبقاء

في عُزْبتي هاته

مع رائحة النمل التي تُطنّ

حول المصباح

ولأبْقِ أسيرَ هاء الهواء

إنْ كانتْ لا توجَدُ بئر

في هذه العُزْفة

رسالة إلى نفسي

أنا على ضفة نهر.

السَّماء مُلبّدة

بزئيق صفارات الإنذار

في أحد الكواكب.

أسمع أيضاً قرعاً في عظامي

فكأنها طبول دقيقة.

في وسط النهر، تُظهر السمكة

آكلة الغرقى.

على الضفة المُقابلة، امرأة تتعرّى.

وها هي تسبح على ظهرها، تتلذذ

من رُكبتها.

تُقبل نحوي ثم تعكس وجهتها.

إنها مترددة، إنها مترددة.

مياه النهر غاضبة من هذا.

غَضِبُهَا يَصَّاعِدُ شَفْرَاتٍ

تُصِيبُ الْكَثِيرَ مِنْ صَغَارِ الطَّيْرِ.

هَلْ أَبْقَى عَلَى هَاتِهِ الضِّقَّةُ

التَّعْيِيسَةُ؟

يَمْرُقُ أَمَامَ عَيْنِي طَائِرٌ

إِنَّهُ يَشْحَبُ وَيَشْحَبُ

رَبِّمَا هُوَ خَائِفٌ مِنَ الشَّفْرَاتِ

رَبِّمَا هُوَ يَتَذَكَّرُ الشَّجْرَةَ

الَّتِي احْتَضَنْتُ

حُبَّهُ الْأَوَّلَ.

أَبْقَى هُنَا

مُنْصَتًا لِلْقَرْعِ الْمُتَصَاعِدِ

مِنْ عِظَامِي؟

زمنُ القَتلة

(إلى طرفة)

كان يَخلو له
أنْ يُعَنِّي في حذائه
لا يُحبُّ أنْ يُؤلِمَ حجراً
لا يَحتمل أنْ يزدري زهرة
وشعرَ أنّهُ مُفرغ من الكينونة
أنّه أصبح يُشبهُ عُصفوراً
قيّدوا قائمته
أنّ الهواء يُلْفه
ويُضَيِّق عليه
وأنّه لم يعد يُطبق
أن يعيش بينهم
تسكّع طويلاً

فِي أَرْزَقَةٍ مُعْتَمَةٍ
شَرِبَ حَتَّى شَعِشَعَ ظُلُّهُ
وَتَرَكَهُمْ يَفْصِدُونَ
عِزُّهُ الْأَكْلَ

اكتئاب

وطنُ العين
فَحَجْرٌ أَوْ مَنْطاد
بِالْمَنْطادِ يَمَكُنُكَ الصُّعُودُ
فِي الْفِضَاءِ
وَصَهِيلُ الْأَرْضِ
يَنْدَاخُ مِنْ كَتْفَيْكَ غَنَاؤُهَا مِنْ
عَيْنَيْكَ
الْعَيُونُ قَدْ تَكُونُ مَسْتَطِيلَةً
وَأَحْيَانًا عَلَى شَكْلِ مُنْمَنَاتٍ
قَدْ تَعْمِزُ الْعُشْبَ تُقَبِّلُ النَّدى
فَلَهَا شَفَاهُ
وَرَبِّمَا تَجُوبُ حَانَاتِ الْمَدِينَةِ
أَثْنَاءَ نَوْمِ أَصْحَابِهَا

آه! في تلك الأيام
في تلك الأيام الخوالي
كُنَّا شَعْباً قَوِيَّ الشُّكِيمَةِ
عَيُونُنَا تَقْذِفُ العَدُوَّ
بِشُهْبٍ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ
مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ، كَانَ يَكْفِي
أَنْ نَنْقَعَهَا لِلَيْلَةِ كَامِلَةٍ
فِي يَوْمٍ قَوِيٍّ
ثَابِتَةً كَانَتْ أَبْصَارُنَا
فِيهَا يُسْمَعُ هَدِيرُ المَوْجِ
وَتَنْعَكِسُ مَلَا حَمَّ عَظِيمَةٍ
لَكُنَّا كُنَّا أَيْضاً نَتَعَدَّبُ
حِينَ نَتَذَكَّرُ أَنَّ عَيُونَنَا
كَانَتْ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، تَزْدَادُ
تَصَلُّبًا

وها نحن، واحداً فواحداً

ننزوي، كئيبين، كلُّ في قعر

موجة

لأنّ لنا عيونَ غرقى

لأنّ حياتنا

خالية من الدّموع

ما إن تقف أمام كهف

أنفاسك ضالعة في المؤامرة التي هيكت ضد أجنة عرسوا في الثلج.
والبجع الذي ينبثق من كتفيك يثير قلاقل في جنبات المدينة. ثرافك صبيّة
تزعّم أنّها ابنتك، لكنّها مجرد فراشة متنكرة.

مع ذلك، فأنت تدقق طويلاً في أعناق المارّة في سيقان الخزامى. لذا،
فأعداؤك كثر. وما إن تقف أمام كهف يهبّ منه جنون نملة حتى يجردوك
من أحلامك، ثمّ يعيدوك، على مراحل، إلى ما قبل الولادة. بعدها يقولون:
يقيم في كسوف دائم، مع الفجر يسرق أضوات المتثائبين.

كُنْتُ من أبطال هوميروس

أريدُ أن يبقى النسيم على أناقته

أن تحضر الفرس في الموعد

وأن تمضي بي

في الوجهة التي تختار

أريدُ نهرًا يُوشح صدري

فالبارحة، رأيتُ في الخلم

أنني نازلتُ آخيل

في الإلياذة

في الواقع، لا أُصِرُّ على شيء

من هذا

فأنا الآن هادئ

وعيناي وحدهما العيفتان

بمزماري

بنغماتٍ مِن مزماري الذهبِيِّ

الذي ورثته عن أسلافي (كانوا

يَغرسون أشجاراً فتبدأ

في الغناء

وكانت الأنغام

حريزهم الذي يَصنعون منه القُصان...)

بموسيقى مزماري الذهبِيِّ

سأستدرجُ واحدةً

إلى هذا البُستان الكئيب

بنباته الصِّفراء التي

لم تعرف قطَّ الحُبَّ

بناطوره الأعمى

الذي لا يُعيِّرُ بين الأرضِ

وباقى الكواكب!

آه! هذه الوحشة تلزمها

واحة

هذا البستان

فى حاجة لنغمات

يوتوبيا

أخيراً، أيّها القلبُ بوحشتك

القليلة الغامضة

تنزلُ من نجمتك الأليفة

واضعاً يَدك في يدي

يا قلبي الذي غطّى حدائق

بالنبضات

وها أنتِ، يا هذا الضوء

تُهَبِّ متحمّسا

فقد ائتمنتك الطيور

على وميض دمائها

والملاحون الشجعان

التحقوا بنا

بعد أن أجبروا قراصنةً عُتاة

على التخفي في أرحام

بنادقهم

أنا، أيضا، مُتهَيِّئ

فقد كنتُ من مشاهير الكماة

وذاك ما تشُّهد به طحالب الهواء

التي اخترقتها سهامي

مُجتمعين، سُنْفَلح بكل تأكيد

الضوء سينيرُ طريقنا

والملاحون سيمخرون بنا عباب البحر

وقوسي وكنانتي

على كتفي!

سُنْحَرُّ الأمواج من حياتها الرّتيبة

ونجعلها تمشي على أقدام

سنمنحُ هذه الأشجار التّعيسة

ذكرياتِ طفولة

ومرايا تبدو فيها

غيداً مرحات
وُنقيمُ لهذي الشموس التائهة
الفقيرة
أُعشاشاً بين السّوسنات
وبقصاد مضيئة
سنفتدى سبايا الحروب القديمة
والغيمة التي ما زالوا يأسرون
في بنطال قديم
لماياكوفسكي
ومن تشأ من الصّبايا
اللواتي تحولنَ إلى أسماك
نُعدها سيرتها الأولى!
يقيناً أننا، مجتمعين،
سننجح!

وقائع

هذا الصّباح، لاحقتني

على امتداد شارع السنّجاب

- حيثُ، دوماً

أقوم بنزهتي-

شجرة ذات أنفاس حرّى

ذات قوائم وبريق عين

وحين ابتسمتُ

إنقلبُ شجرة عادية

لها جذورٌ وعصافير!

يا أنا يا أنا

ها هي خلفك الآن

فاذا غنيتُما معا

سيُغمى على الغيوم!

وأثناء الظهيرة، كُنْتُ أمشي

على الشاطئ

وكانت، أيضا، تتبعني!

كانت تثيرُ زوبعة رمل صغيرة!

فقلت: يا أنا يا أنا

إن دغدغتْ إبطها

فستهذي بأسمائك

إلا أن شيئا من ذلك لم

يتحقق فابتسمتُ

لكنني تذكرتُ غابئةً بأكملها

كانت، في واحدٍ من أخلام طفولتي

قد اجنَّتُ

وفي لحظة التذكر الأليم تلك، حلَّ

الأملُ فجأة، إذ بدأتُ

غابتي الضائعة

تتناهى، من جديد
أمام عينيّ
معافاةً، رهيبةً، مناسبةً
على شكل شعيرات سوداء
في عانة غادة
وقفتُ فجأةً، وحيدةً، مَشِيقةً
قُبالتِي، واقْتَرَبْتُ، جريئةً...
ثمّ كان السّاطعون الذي
ينحْتُ في الصّخر
وكان الأشيب الذي
يببغك رطل الكهرباء بدرهمين
وكانت مياه البحر
والفلكيّات البرمائيّات
اللواتي قد يخرجن في أية لحظة
من تلك المياه

ويمضين للتسكع في الحقول
آه! الفلكيات عاشقات الأعشاش!

وكانت الشمس تُلَوِّح جسدي

لكن لا شيء من هذا كلّه

يُمكنه أن يَعدِلَ عندي

خطوةً

في شارع

السَّنْجَاب

حكاية

رَجُلٌ مَفْتُولُ الْعَضَلَاتِ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يُلَاكِمَ الرَّبْدَ
مَعَ هَذَا، جِدًّا رَقِيقًا
رَأَى يَدَيِ الْفَجْرِ تُقَطِّعَانِ
فَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ
وَمِنْ دُمُوعِهِ
تَكُونَتِ الْيَدَانِ مُجَدِّدًا
أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً، نَزَلَ الدَّرَجُ
نَحْوَ عُزْفَةِ الْأَحَدِ
فِي كُلِّ مَرَّةٍ، يَطْرُقُ الْبَابَ مُطَوِّلاً
وَلَا مِنْ مُجِيبٍ
بَدَأَ شَكُّهُ يَهْصِرُهُ
وَأخيراً، أدرك أنّ الأحد قد اختفى

أَنَّ الْأَيَّامَ الْمُتَبَقِّتَةَ

فِي حِجَادٍ

وَأَنَّهُ يَطْرُقُ بَابَ غُرْفَةٍ فَارِغَةٍ

إِلَّا مِنْ رَائِحَةِ الدَّمِّ

وَبَقَايَا كَوَابِيسٍ

غِيَاء

لا تطلبي مني أن أشرب

كأساً أُخرى

من هذا الشراب الزّعاف

وإذا شئت أن تقولي للعالم

وداعاً

دعيني أنا أكمل تماريني

وأتسلق جبال قلقي

فالقلِقون، كثيراً ما يُفكرون

في التّماعات الأزهار السّوداء

وكثيراً ما يستشعرون في رئاتهم

آلام المسلوين

والتّعاسة هي ضُرب من الموسيقى

والطيور المعدنية

التي يجري في عروقها الرّزّيق

مع الأنغام

يُمكنها أن تُخلِّق حتَّى داخل دم

الأغصان

أتركيني قليلاً

حقاً، إن قلتِ وداعاً

ستسري في عظامي

صلواتُ النُّجوم الخرساء

غير أنني الآن، ما أزال

في سُكونِ كأسِ السُّموم هاته

التي تلامسها أصابعك

برهبة والتذاذ

وقفْتُ إلى جانب البئر

أنتِ لستِ الآن في الغرفة- لأنك تبحثين في الحديقة، عني أو عن السحليّة
التي غارتُ في رائحة العسل- فيما، من النافذة، تَدلف الآهة، قادمة من فم
بعيد، فتُحدِّب ظهور المناضد وتُحيل أغنيتي إلى غبار.

أنا الآن على الشاطئ: أمامي السحرة، صهْدُ عيونهم حوّل بيوتاً عديدة
إلى دخان. العالم رهيب، يُكزّرون، فتنشُب حروب ويتساقط نخاع شوكي
كثير في صحون الباذنجان المقلّي وتشتدّ آلام كلِّ هائم...

سأليني مرّة هل تُزعجني قرعةُ عظامك أثناء النوم. حدث ذلك ليلة شاب
القمر. وكان الألم يتساقط فوهماً أنه قطر. ومضينا معاً إلى الحديقة،
فوقفنا إلى جانب البئر التي تحلم ببلد بعيد.

وها أنا، من جديد، أمزّر يدي على سنام منضدة، وأدرك أنني لن أذهب غداً
لرؤية عظام جدّي، وأنت ستصفييني بالكسول، العبثي، بالتائه الأبدّي

أحياناً، تكون ماضياً في طريقك، فإذا بنحلة تعترضُ سبيلك، تتمدّد أمامك

في عرض الشارع، فتبقى واقفاً فوق ضحكتك، ويحييك صديق يوناني يبذر
قمح الإلياذة في أثلام كفه اليسرى، فتقف مشدوهاً، إن لم تلذ بالفرار.

التقيُّتُ بالحصان

أمضي شاحباً، لا أتوقف إلا جنب الفتاة التي تمدّ يدها فوق بحيرةٍ تقولُ إنَّ
ماءها سينضب إن استمرَّت السمكة الحمراء في عض الطحالب ذات الأحذية
الحديد.

تقول: إنك شاحبٌ لأنني امتصت لسانك وأنت نائم.

وأنا لم أركب اليوم حصاني لأنه كان قد نسي حدوده يوم بلغ أشده قرب
جدولٍ، وأصبح يهاب الضفاف!

التقيُّتُ بالحصان في آخر تانغو بباريس، وبالفتاة حين كنا نلبس جواربنا أمام
إحدى الكاتدرائيات، وسرعان ما وجدنا نفسي نَضْفِرُ في طنجة. روت لي
كيف كانت ترسم دوائر خضراء لِإِرْبِيِّ فِيهَا الشَّتَاءُ أغانامه. وقالت إنَّها
بدورها ربّت فراشة من هيدروجين في شجرها.

أخبرتها بأنني، في الطفولة، كنت قد ركلتُ تمثالا، فاخترقتُ شُعلةً قنديلٍ
حشداً من الكلاب نحوي. وكنْتُ، كلما تشكَّلت قارورة من ظلِّ يمامة، أسارع

إلى فَلْيُهَا بَمَاء بَارِد!

قالت: أَنْتَ نَهْرِي السُّاحِب، أَنْتَ نَهْرِي.

والتفاحة في يدي...

كيف يمكنني أن أشعل السيجارة،

وكلّ القدّاحات تَحْفَتُ في رُديك، مُذ رأيتِ في اللحم أنك تُحرقين خدّي.

بالأمس، كُنّا في الطريق إلى عيادة الطبيب، ومرّ أماننا صديقي المجنون،

وكان يكرّر: النّحلة تحت السّاطور، النّحلة تحت السّاطور، وشعرتُ أنّي سأبكي

أو أضحك، لكنه اختفى سريعاً، وكان دمّ ينسابُ من الحُقن التي تُخبّ جنب

أقدامنا، والطقس بداخل آذان الكلاب يتحوّل من فاتر إلى شديد البرودة،

وفي الأعلى، عين الرعد تتّسع وتتّسع.

لماذا تريدان إحراق خدّي؟

مسحتُ أعصابي بإسفنجة كما يفعلون أحياناً بأعصاب السيارات ثم وجدنا

نفسينا على الشاطئ، وأردنا أن نتأمل البحر. لكنّ لم يكن قد بقي منه إلا

سبع موجات عجاف، يحملان في مقاعدهن الخلفية سبع نساء ضاحكات. إلى

أين يتّجهن بهن؟ في كفّ كل امرأة شمعدان. وفي الجُحور القريبة، سقط

مطر على الفئران. وكان هناك من يطوي البُسُط ويفرُش الصرخات.
والتفاحة في يدي تكاد تختنق. ويدك تعبتُ بشعري.
الطبيب قال لا تركبا، بعدُ، سيارة جريحة.

انتظار

يُطلقون العنان لأنفاسهم، وينتظرون الأوتوبيس، ومن حولهم الهواء بارد
ومُعَصَّن، ويثير الرّيبة. تدبّ الرّعشة في الأجساد، بسبب رائحة قوس قزح،
وتُقضض أسنانُ الهيكل العظمي المركون مع الدراجات إلى جدار الفندق
القريب من النّهر.

الرّجل النحيف يتسم لفتاة قبالة، تفرغ الهواء البارد بمطرقة العُنُق.
وارتفع صوت، فارتطمت ركبتان بصداه. أكانت تلك الهمسة التي قصمت
ظهرَ الجمل؟ ثم وجة المطر مسدّساته إلى أصداغ السيارات. في الوقت
نفسه ضغطَ الموسيقيّ على زناد الأرغن. والحافلة لا تأتي، لكنّ تابوتاً مرق
على عجلاته المضيئة.

واكتشف الرجل النّحيف أن طائر الرّخ ليس سوى بناية من ريش. آن لنا، إذن،
أن نتعقّل. أن نحنو على الفراشة الصّماء التي تقترب منا. على الطفل الذي
علقت قدمه بين أسنان الصابونة.

طبعاً، أنا الرّجل النّحيف. أما الطّفّل فهو العبقرّي الذي اكتشف المعادلة.

كنتِ قد أيقظتني من نومي لتسألني: أيُّ معادلة؟ ألا تعملين؟ تلك المدونةُ على عانة قارورة العطر. التي ستمكّن يوماً ما من إنشاء طوفان صغير. من الإنصات إلى بوح تئورة. ومن صنع قفازين للهيكل العظمي الذي يعطس مركوناً إلى جدار الفندق.

قبل أن نخرج لنتظر الأوتوبيس، أطلتُ من النافذة، فإذا بالرَّابية، قبالتني، عارية تماماً. شعرتُ بالذنب لكوني تلمصت. ثم سرتِ أمامي لكي ننتظر، تقرعين الهواء بمطرقة العنق.

السواطير السيكوباتية تُحلق جنب نوافذ الفندق، ولا يأتي الأوتوبيس. نصابُ برداذ القهوة التي تهمني من عين الغراب، ولا أمل. تتكاثر الشفاه حول الأشجار، وأُعديكِ بألمي، ولا أمل.

والآن تظهر الشمس، وسرعان ما تتخذ شكل قاطرة. ومن غرفةٍ في الفندق، يتناهى إلينا نواح: إنها امرأةٌ تبكي طفلها، رهينَ الحمام على الدّوام، بعد أن علقَتْ قدمه بين فكّي الصابونة. وهنالك شاعرةٌ ترمش بسرعة بسبب نرق العصافير. وراعيةٌ تبكي بعد أن سرى السمّ في دم رابية عارية. إنها نفس الأصوات التي، ربما، كنتُ سمعتها صبيحةً صليّ جدي على

سجّادة من الصّمغ فبقي ساجداً طيلة النهار حتّى فكناه. في ذلك اليوم، تمكّنت واحدة من دموعي من عبور ثقب إبرة، وتمّ العثور على مصائب قوم عند قوم آخرين، وتأجج دمّ جرادّة، فسحبتُ أسماء الحشرات من معجم كثيرة. وها أنتِ الآن تستوردين الهمهمات من ذاكرتي. فهل ستُنقّبين معي عن

الأسرار المخبوءة تحت ياقة فراشة؟

ويُقبل نحونا التابوت على عجلاته. يقف أمامنا، نحن المنتظرين. التابوت فارغ، يستلقي فيه واحدٌ منا، فيقلع به إلى مكان مجهول.

وتتكاثر الشّفاه حول الأشجار. وتمرُّ الدراجات الحزينة. ويُعديك دُبي للثّيه. وإذ يتكاثف الغبش، نُعلن، نحن منتظري الأوتوبيس، إجلالنا للمجهول الذي سافر في التابوت.

إِنْ كُنْتُ مِنْذُ الصَّبَاحِ...

لَسْتُ مِنْ يُجَامِلُ. أَتْرُكُ قَلْقاً يَنْسَابُ فِي بُلْعُومٍ أَوْ فِي أَنْبَابِ الْقَصَبِ، حَسَبِ
الطَّاقِسِ وَكَيْفِ هُوَ مَزَاجُ زَهْرَةِ الْآسِ عَلَى كَتْفِ النَّدِيمَةِ لِيْنَا. وَإِنْ كُنْتُ مِنْذُ
الصَّبَاحِ فِي هَذِهِ الْحَانَةِ، جَنْبَ هَذِهِ النَّافِذَةِ، بَعْضَامِي الَّتِي تَتَحَمَّسُ أَيَّامَ
الْمَآسِي، فَذَلِكَ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ تَضَامِنِي.

مَعَ مَنْ؟ يُسَائِلُنِي بَعَيْنُهُ الْمَخْمُورَةُ الْبَدِينُ الْجَالِسُ قِبَالَتِي، وَكُنْتُ حَسْبَتَهُ
يَعْلَمُ...

مَعَ مَنْ! مَعَ أَوْلَائِكَ الْأَقْرَامِ الَّذِينَ جَعَلْتُ مِنْهُمُ الْغَابَةَ الْقَرِيبَةَ أَشْجَارَهَا
الْقَصِيرَةَ!

الْأَوْلَى الْآنَ الْإِنْصَاتُ لِصَفِيرِ أَظْفَارِي الْمَأْخُودَةِ بِحُلْمِهَا الْمُتَكَرِّرِ، حَيْثُ أَظْهَرُ،
بِدَايَةً، فِي شَاطِئِ. بَعْدَهَا، تَقْتَرِبُ مِنِّي امْرَأَةٌ فِي لِبَاسِ مَمْرُضَةٍ - يَبْضُحُ أَنَّهَا
لَيْسَتْ سِوَى لِيْنَا - حَامِلَةً فِي يَدِهَا حَقْنَةً تَقُولُ إِنَّهَا مَمْلُوءَةٌ بِفُودِكَا رُوسِيَّةِ
خَالِصَةٍ! ثُمَّ تُوجِّهُ إِبْرَتَهَا نَحْوَ ذِرَاعِي!

فَجَاءَتْ، أَتَنَّبَهُ لِمَا حَوْلِي.

وأشبحُ بوجهي نحو النَّافذة، فما الذي أراه في الأعلى؟

طيورٌ غريبة تحلّق فوق الغابة القريبة، التي جعلت من أولئك الأقرام

المساكين أشجارها القصيرة!

فهرس:

كوكتب فعربد...

لفائف سحرية (1)

لفائف سحرية (2)

لفائف سحرية (3)

ترزسو الفربعات

حتى الصخراء

في ربيع العمر

أصنع سهاماً

ليت لي

حيرة

ذكرى

بحنين

البئر

رسالة إلى نفسي

زمن القئلة

اكتئاب

ما إن تقف أمام كهف

كُنْتُ من أبطال هوميروس

بمزماري

يوتوبيا

وقائع

حكاية

عياء

وقفتُ إلى جانب البئر

التقيتُ بالحصان

والتفاحة في يدي...

انتظار

إن كُنْتُ منذ الصّباح...

نبذة عن صاحب المجموعة

وُلِدَ مبارك وساط سنة 1955. وقد صدرت له المجموعات التالية:

- على دَرَج المياہ العميقة (طبعة أولى، دار توبقال، الدّار البيضاء، 1990).

- ثلاث مجموعات في كتاب شعري صدر عن منشورات عكاظ في سنة

2001، وهي: 1- على دَرَج المياہ العميقة (طبعة ثانية، مُراجعة ومنقّحة)،

2- محفوفاً بأرخبيلات، 3- راية الهواء (متوالية شِعْرِيَّة).

4- مجموعة رابعة: فراشة من هيدروجين (دار النهضة العربية-بيروت،

2008).

5- مجموعة خامسة: رَجُل يبتسم للعصافير (منشورات الجمل، بيروت-بغداد،

2010).

6- مجموعة سادسة: عُيُونُ طالما سافرتُ (منشورات بيت الشّعْر بالمغرب،

المغرب، 2017).

وقد صدرت له، أيضاً، مجموعة شعرية بالفرنسية والعربية، تحت عنوان:

Un éclair dans une forêt

(دار المنار، باريس).

وفي مجال الترجمة، صدر له: شذرات من سفر تكوين منسي، لعبد اللطيف اللعبي، نادجا، لأندري بریتون، التحوّل، لفرانتس كافكا، الأبدية تبحث عن ساعة يد، وهي قصائد مختارة لأندري بریتون...

حَتَّى الصَّخْرَاءِ

أَفْكَرَ: لِمَ كُلَّ هَذَا الدَّمْعِ

الَّتِي تَتَشَكَّلُ خَفِيَّةً

تَحْتَ أَظْفَارِنَا

وَلِمَ تَتَوَجَّسُّ الْأَشْجَارُ

مِنْ شُعُوبِ الْعَصَافِيرِ

أَفْكَرَ: يَجِبُ أَنْ نَسْتَمِرَّ فِي السَّيْرِ

حَتَّى الصَّخْرَاءِ

الَّتِي تَبَّتْ فِيهَا

الْمَسَامِيرُ

أَحْيَانًا، يَبْدُو لِي

أَنَّهُ لَا مَبْرَرَ لَوْجُودِي

سِوَى أَنْي زَاوِيَةٍ

فِي مِثْلِ رِعْشَاتِ

بَرْقٍ فِي غَابَةِ

شَرِّ فِي عَيُونِ

الصَّيْفِ



فراشة من هيدروجين

- طبعة 2020 -